الفصل الثانى

الحملات الصليبية الألبيجنسانية

الحملة الأولى: بيزييه وكاركاسون

(١٢٠٩ ـ ١٢٤٤)

كان من السهل على قوات الشمال الفرنسى مهاجمة أمراء أوكيتانيا فى الجنوب بسبب افتقارهم إلى الوحدة والتماسك. ومن جانبهم حشد سكان الجنوب جيشًا للتصدى للهجوم الذى يتعرضون له من الفرنسيين الغزاة، واحتدم من جديد التنافس القديم بين ريموند السادس كونت تولوز وغريمه ڤايكونت بيزييه؛ حيث شعر كلٌّ منهما بأن الآخر يتربص به الدوائر.

بل فكر ريموند فى الانحناء أمام العاصفة بالانضمام إلى صفوف الحملة الصليبية بغية إرضاء الكنيسة باضطهاد عدد من المهرطقين، ورأى فى ذلك حماية لنفسه ومملكته من أى تدخل خارجى، وشجعه على اتباع هذه السياسة أن الكنيسة وعدت بحماية ممتلكات كل من يشترك فى الحروب الصليبية. وفكَّر كونت تولوز لو أن جميع حكام أوكيتانيا انضموا إلى صفوف الصليبيين لأصبحت كل ممتلكاتهم فى الحفظ والصون وفى مأمن من المصادرة. ولو كان الأمر بيد البابا إينوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦) وحده لنجحت خطة كونت تولوز البارعة، ولكن أعوان البابا مارسوا ضغطًا شديدًا عليه حتى لا يثق بعهود حكام أوكيتانيا، وخاصة لأن كونت تولوز كان يعطيهم من طرف اللسان حلاوة دون أن ينفذ أيًّا من وعوده. وكان أرنود أمورى أكثر أعوان البابا تشككًا فى نوايا كونت تولوز. ولكن هذا الكونت كان غافلًا عن حقيقة المشاعر المعادية له داخل الكنيسة. واقترح أن يتحالف مع غريمه ڤايكونت بيزييه، ولكن الڤايكونت رفض التحالف معه؛ الأمر الذى اضطره إلى التصرف بمفرده، ولهذا سعى إلى التصالح مع الكنيسة بغية حماية أملاكه من المصادرة. وكان كونت تولوز على أية حال يدرك أن المفوض البابوى فى أوكيتانيا لا يثق به، ولهذا طلب من البابا تعيين مفوض آخر يستطيع التفاوض معه واعدًا الكرسى البابوى بتنفيذ كل مطالبه.

واستجاب البابا لطلب كونت تولوز بناء على حسابات سياسية رأى أنها فى صالحه، فعيَّن ميلو مفوضًا باباويًّا بدلًا من أمورى، ولكنه أمره بالانصياع لأوامر أمورى فى كل شىء. ولم يعلق البابا أهمية كبيرة على إخلاص كونت تولوز وصدقه؛ فهو فى حالة صدقه سوف يتخلى عن حماية جماعات كبيرة من المهرطقين، وحتى فى حالة ختله وخداعه فإن الكنيسة سوف تستفيد من تظاهره بالخضوع لها؛ لأن مثل هذا التظاهر سوف يمنعه من مقاومة الحملة الصليبية، وهذا بدوره سوف يؤدى فى النهاية إلى إضعاف جبهة الأمراء الآخرين المارقين والذين يوفرون الحماية للمهرطقين، وبذلك يسهل على الكنيسة الانفراد بكونت تولوز والقضاء عليه، ونصح البابا أعوانه باتباع سياسة عزل حماة المهرطقين وتفتيتهم حتى يسهل على الكنيسة القضاء عليهم الواحد تلو الآخر. يقول البابا فى رسالة وجهها إلى مفوضيه بهذا الشأن:

> لا تبدءوا بالهجوم على كونت تولوز طالما أنه لا يندفع بنزق إلى الدفاع عن الآخرين. كونوا حكماء وأخفوا نواياكم. اتركوه وشأنه فى البداية حتى تتمكنوا من مهاجمة من يصرحون بتمردهم عليكم؛ فلن يكون من السهل علينا سحق أعداء الله لو أننا أعطيناهم فرصة الاتحاد فى سبيل الدفاع المشترك، ومن الناحية الأخرى سيكون من السهولة بمكان سحقهم طالما أن الكونت لا يساعدهم، وربما ينصلح حاله إذا رأى المصائب تترى على رءوسهم. ولكنه إذا لم يهتم واستمر فى مخططاته الشريرة وهو معزول ويستند إلى قواته الخاصة فحسب، فسوف نتمكن من دحره دون كثير من المتاعب.

وفى المقابل، سعى كونت تولوز إلى الاستفادة من سياسة البابا إينوسنت الثالث، فقد أثلج صدره أن يرى الحملة الصليبية تخضع الحكام الذين يشقون عصا الطاعة عليه ويخلقون له المشاكل وعلى رأسهم ريموند روچر ڤايكونت بيزييه، وخاصة لأن التجربة دلته على أن أية حملة صليبية تبدأ قوية فى حينها، ثم لا تلبث أن يعتريها الضعف والوهن. وطبقًا لتقديرات كونت تولوز فإن غريمه ڤايكونت بيزييه لن يستطيع الصمود أمام الحملة الصليبية أكثر من عام ينفرط بعده عقد الحملة الصليبية ويتلاشى حماسها فتعود من حيث أتت إلى الأراضى الفرنسية، وبذلك يسهل عليه الاستيلاء على ممتلكاته وابتلاع منطقته.

أظهر كونت تولوز تصميمًا على التصالح مع الكنيسة مهما كان الثمن. ومن أجل هذا

اعترف بفشله فى مراعاة أيام الأعياد الكنسية كما اعترف بحمايته للهرطقة. وحتى يثبت نواياه الحسنة قام بتسليم قلاعه السبع إلى الكنيسة. وفى ١٨ يونيه ١٢٠٩ اضطلع المفوض الباباوى ميلو بتعنيفه تعنيفًا شديدًا. وفى اليوم التالى أمسك كونت تولوز بالصليب واعدًا بتقديم العون للحملة الصليبية قدر استطاعته.

فى الوقت نفسه، بدأت الحملة الصليبية مسيرتها؛ حيث إنها غادرت مدينة ليون يوم ٢٤ يونيه ١٢٠٩ لتصل فى ٢٠ يوليه من العام نفسه إلى مدينة مونپليه وهى معقل مهم من معاقل المذهب الكاثوليكى فى الجنوب. وبسبب إعلان كونت تولوز عن ولائه المطلق للكنيسة الكاثوليكية، وجهت الحملة الصليبية أهدافها العسكرية نحو أراضى ڤايكونت بيزييه ريموند روچر الذى عرف بسمعته السيئة فى حماية المهرطقين شأنه فى ذلك شأن كونت تولوز نفسه، فضلًا عن أن ڤايكونت بيزييه وفَّر الحماية لكثير من المهرطقين الكاثاريين. وانسحب ريموند روچر إلى كاركاسون أكثر مدنه تحصينًا. ولكن مدينة بيزييه التى انسحب منها كانت محصنة تحصينًا كافيًا، مما جعل سكانها واثقين فى قدرتهم على مقاومة الحصار الذى فرضته الحملة الصليبية عليهم. وساعدهم على هذه المقاومة احتقارهم العظيم للكنيسة إلى جانب غيرتهم الشديدة على استقلالهم عنها لفترة طويلة، وظهرت هذه الثقة بالنفس عندما تحدوا أسقفهم رينو دى مونتبيروكس عندما رفضوا تسليم ٢٢٢ مهرطقًا كاثاريًّا، ووالدنسيانيًّا، نظير عدم إلحاق الأذى بمدينتهم؛ حيث إنهم اعتبروا الحملة الفرنسية الصليبية وليس الهراطقة تمثل الخطر الحقيقى عليهم.

مجزرة بيزييه

تصدت مدينة بيزييه للحملة الصليبية القادمة من الشمال الفرنسى وقاومتها بشدة. ولو أن سكان بيزييه تحملوا الحصار المفروض عليهم لفترة أطول لدب التعب فى أوصال المهاجمين ولعادوا أدراجهم، ولكن بعض سكان بيزييه تسرعوا وخرجوا من مدينتهم للقاء المهاجمين، فاستطاع المهاجمون دحرهم وردهم على أعقابهم، وما إن دخل الصليبيون بيزييه حتى ارتكبوا فيها مجازر فظيعة، هلك فيها الكاثوليك والهراطقة ومن الرجال والنساء والشيوخ والأطفال على حد سواء. وأبلغ المفوض أرنود أمورى والفرحة تملأ قلبه الكرسى الباباوى بمقتل نحو عشرين ألف شخص فى هذه المجزرة. ومن المحتمل أن يكون هذا الرقم مبالغًا فيه، ولكن من المذهل أن نرى المفوض الباباوى يعبر عن جذله لمقتل هذا العدد الهائل من الناس. والغريب أيضًا أن القيادة الأرستقراطية لهذه الحملة الصليبية لم تستبشع هذه المجازر، فى حين أنها استبشعت

بل تدخلت لوقف أعمال السلب والنهب باعتبارها منافية لسلوك الأشراف والنبلاء. وهكذا انتصرت الحملة الصليبية على المهرطقين فى بيزييه، فقررت المضى إلى كاركاسون التى استسلم حكامها للكنيسة وطلبوا منها أن تشملهم برعايتها.

وبسبب هذه الانتصارات الصليبية الكاسحة، تعهد سكان المدينة الكبيرة ناربون باتخاذ الإجراءات الصارمة ضد المهرطقين. وتعبيرًا عن ولائهم للكنيسة قام كثير من نبلاء ناربون بتسليم قلاعهم وممتلكاتهم إلى الجيش الظافر، وهرب البعض إلى الجبال يحتمون بها. أما كاركاسون فلم تسقط فى أيدى الصليبيين بالقوة العسكرية بسبب تحصيناتها الجيدة، ولكن لسوء حظها حاصرتها قوات الحملة فى أيام القيظ الشديد فلم تستطع مواصلة المقاومة بسبب نفاد مخزون مياه الشرب لديها. والجديد بالذكر أيضًا أن الأمر انتهى بريموند روچر حاكم بيزييه إلى الاستسلام، فتم أسره وظل حبيسًا فى الأسر حتى وافته المنية بعد شهور قلائل. وسمحت الحملة الصليبية لجميع سكان كاركاسون بالرحيل عنها دون التعرض للأذى بعد تسليم أراضيهم وممتلكاتهم للكنيسة.. وغنى عن الذكر أن هذا العفو شمل المهرطقين الكاثاريين.

وبعد سقوط بيزييه وكاركاسون فكرت قيادة الحملة أن تعهد إلى دوق بورجندى وكونت نيفير بتولى مقاليد الحكم فى هاتين المدينتين لكنهما اعتذرا عن عدم اضطلاعهما بهذه المهمة المشرفة، فوقع اختيار الحملة على ضابط صنديد أبلى بلاءً حسنًا فى محاربة المهرطقين فى كاركاسون وأظهر ولاءً شديدًا للكنيسة، وهو «سيمون دى مونتفورت». كان سيمون يجمع بين الطموح والواقعية، فقد أدرك منذ البداية أن الحملة الصليبية سرعان ما سوف يعتريها الوهن وينفرط عقدها عقب سقوط مدينتى بيزييه وكاركاسون، كما أدرك أن هاتين المدينتين تمثلان جزءًا ضئيلًا من أراضى ترانكاڤيل التى يتعين عليه الاستيلاء عليها. فضلًا عن أنه أدرك أنه فرنسى غريب عن أهل الجنوب الذين لن يقبلوه حاكمًا عليهم. وأظهر سيمون دى مونتفورت ترددًا فى قبول هذه المهمة، ولكنه اضطر إلى قبولها تحت ضغط شديد من الكنيسة. وكما توقع سيمون القائد المحنك انفرط عقد الحملة الصليبية؛ حيث عاد إلى بلادهما كل من دوق بورجندى وكونت نيفير تاركين برفقة سيمون نحو ثلاثين فارسًا وعددًا ضئيلًا من الجنود المرتزقة.

كان شتاء عام ١٢٠٩ ـ ١٢١٠ بشير خير، كما كان فى نفس الوقت نذير شؤم على سيمون، ففى بداية الشتاء توغل سيمون فى منطقة ترانكاڤيل ونجح فى الاستيلاء على مدينتى ليموكس فى جنوب أوكيتانيا وألبى فى شمالها دون أية مقاومة تذكر. وفى طريقه الظافر استسلم له كثير من المدن

الصغيرة. ولحسن حظ سيمون توفى فى سجنه حاكم بيزييه المعزول ريموند روچر، فآلت جميع أملاكه إلى سيمون دى مونتفورت عن طريق شرائها من أرملة ريموند روچر وابنه الرضيع.

ولكن الحظ الذى ابتسم له سرعان ما تبدَّل، فقد أخذت المدن التى استسلمت له فى التمرد عليه، كما أنه تم قتل وأسر الكثيرين من القواد الموالين له. فعلى سبيل المثال قام كونت فوا باسترجاع إحدى القلاع التى كان قد سلمها إلى سيمون.

والتفت سيمون من حوله فوجد نفسه يقود جيشًا صغير العدد يحاصره المتمردون من كل جانب، وتتضح لنا مشكلات سيمون فى خطاب أرسله إلى البابا جاء فيه ما يلى:

> «إن النبلاء الذين اشتركوا فى الحملة الصليبية تركونى بمفردى تقريبًا، يحيط بى أعداء يسوع المسيح من كل جانب ويحتلون الجبال والتلال. وليس فى استطاعتى أن أحكم هذه البلاد لمدة أطول إلا بمساعدتكم ومساعدة المؤمنين المخلصين. إن الحرب وويلاتها أصابت البلاد بالفقر المدقع، كما أن الهراطقة الذين خربوا ودمروا وتخلوا عن بعض قلاعهم لا يزالون يحتفظون بقلاع أكثر تحصينًا وينوون الذود عنها. ويتعين علىَّ أن أدفع إلى الجنود الذين يبقون معى رواتب أكبر من الرواتب التى أدفعها فى الحروب الأخرى. وإنى لم أتمكن من الاحتفاظ ببعض هؤلاء الجنود إلا بعد أن دفعت لهم ضعف رواتبهم».

ولولا تفكك جنود المقاومة فى أوكيتانيا وشدة مؤازرة الموالين له لما تمكن سيمون دى مونتفورت من الاحتفاظ بإحدى القلاع الأساسية والتخفى فيها لحين انصرام فصل الشتاء وحلول فصل الربيع. وفى الربيع حضرت زوجته أليس وأمدته بتعزيزات إضافية كان لها الفضل فى ترجيح كفته على المناوئين له، فقد نجح فى إخماد التمرد المندلع ضده واستعادة المواقع التى خسرها.

فقء العيون وقطع الأنوف والشفاه
والقتل حرقًا فى قلعة برام

وفى عام ١٢٠٩، نجح سيمون فى الاستيلاء على قلعة برام التى احتمى فيها عدد ممن حنثوا بوعود ولائهم له، كما أن أحد أفراد الكتيبة غدر به ومكن أعداءه من الاستيلاء على

قلعة مونتريال، فأمر سيمون بشنق هذا الكاذب الغادر، كما قام بفقء العيون وقطع الأنوف والشفاه العليا لكل أفراد الحامية التى تمكن من التغلب عليها. ولكنه اكتفى وفقأ عينًا واحدة لواحد منهم لاستخدامه مرشدًا كى يدله على الطريق إلى قلعة كاباريه التى لم تكن قد سقطت بعد فى يد سيمون. والجدير بالذكر أن تقطيع أوصال الأعداء وفقء عيونهم سياسة اتبعها من قبل كل من ريتشارد قلب الأسد وفيليپ أغسطس. والجدير بالذكر أيضًا أن معاملة سيمون للحاميات المعادية الأخرى التى انتصر عليها كانت أقل قسوة ووحشية. وعلى أية حال يبدو أن هذه المعاملة الوحشية لأعدائه المهزومين جعلت منهم عبرة للآخرين ودفعتهم إلى الاستسلام له من أجل الحفاظ على حياتهم وأطرافهم من البتر.

وهكذا استطاع سيمون فى ربيع وصيف عام ١٢١٠ أن يستعيد كل ما نجح أعداؤه المتمردون فى الاستيلاء عليه بدون مقاومة تذكر، ثم ضم إليه قلعتين جديدتين هما منيرڤا ونرميس. وبوجه عام أطلق سيمون هذه المرة سراح أسراه من المهرطقين، ولكن المفوض البابوى أرنود أمورى أصر على إنزال العقاب بزعماء التمرد الذين خيروا بين التراجع عن هرطقتهم أو الموت حرقًا، فتراجعت ثلاث نساء عن هرطقتهن فى حين اختار أكثر من مائة وأربعين مهرطقًا الموت حرقًا، بل إنهم قفزوا داخل النار المضرمة بمحض إرادتهم.

ورغم أن سيمون استولى على قلعتى منيرڤا ونرميس بشق الأنفس، فإن سقوطهما فى يده قضى قضاء مبرمًا على كل مقاومة ضده. وإذا كان جنوب أوكيتانيا قد أظهر مقاومة، فإن شمالها استسلم دون مقاومة. والجدير بالذكر أن مدينة ألبى لم تشهد أى قتال عنيف فيها أو حولها بسبب حنكة أسقفها الذى استطاع الاحتفاظ بعلاقة ودية بكلٍّ من سيمون وأهالى ألبى. ورغم ذلك صمم المهرطقون المتشبثون بهرطقتهم فى ألبى على الاحتماء بالجبال الواقعة فى جنوب أوكيتانيا، وخاصة فى المنطقة الممتدة من تولوز إلى جبال الپيرنيز (البرانس). وشجَّعهم على هذا الرحيل الجماعى أن أحد نبلاء ألبى وفر لهم الحماية. وإذا كانت الحملة الصليبية لم تقتلع كافة الهرطقات من منطقة ألبى، وألبيجوا، فقد نجحت محاكم التفتيش فى نهاية المطاف فى استئصالها جميعًا.

وقوع كونت تولوز ريموند السادس فى المصيدة

فى وقت باكر من عام ١٢١١ استتبت مقاليد الأمور لسيمون دى مونتفورت وأصبح الحاكم الشرعى لأوكيتانيا.

ولكن الكنيسة ظلت تواجه بعض المشاكل الخطيرة رغم كل الانتصارات التى أحرزها سيمون دى مونتفورت، فقد ظل عدد الهراطقة كبيرًا، فضلًا عن أن كونت تولوز ريموند السادس الذى تشككت الكنيسة فى حقيقة نواياه، ظل يحتفظ بجزء كبير من أوكيتانيا. ومن ناحيته خشى سيمون أن يحاول كونت تولوز استعادة ما فقده من ممتلكات، وكانت السلطة الكنسية شديدة الاقتناع بأن الهرطقة سوف تستمر طالما استمر كونت تولوز ريموند السادس فى أوكيتانيا؛ ولهذا بادر سيمون بالهجوم عليه بمباركة البابا وأتباعه رغم أنهم كانوا يتفاوضون للوصول إلى اتفاق معه. وتشككت الكنيسة فى تواطؤ كونت تولوز على اغتيال پيير دى كاستلنو، ولكنها لم تستطع أن تقيم الدليل على صحة شكوكها. وأيضًا كانت الكنيسة تشتبه فى هرطقته دون أن تتمكن من إثبات هذه التهمة عليه، إلى جانب تسامحه مع المهرطقين. وعلى أية حال فقد فعل سيمون دى مونتفورت الشيء نفسه؛ حيث إنه ترك معظم المهرطقين الكاثاريين وشأنهم مكتفيًا بحرق زعماتهم التى وقعت فى يديه. ومن نافلة القول أن نذكر أن الحملات الصليبية الألبيجنسانية فشلت فى سحق الهرطقة المتفشية فى جنوب فرنسا، ورغم ذلك فلا شك أنها مهدت الطريق أمام محاكم التفتيش للقضاء عليها.

وبسبب تشكك الكنيسة فى أمر كونت تولوز، ألحت عليه أن ينشط فى التصدى للمهرطقين وأن ينفذ وعده باستئصال شأفتهم. وتحت وطأة الضغوط التى مارستها الكنيسة عليه، سافر إلى باريس شاكيًا إلى ملكها فيليپ أغسطس من كثرة تدخل الكنيسة فى شئونه، ولكن الملك اكتفى بحسن استقباله دون أن يستجيب له؛ حيث إنه لم يرغب فى توريط نفسه فى شئون الجنوب. ثم سافر ريموند السادس إلى روما فى باكورة عام ١٢١٠ لمقابلة البابا الذى أحسن وفادته دون أن يؤازره حتى لا يغضب كرادلته منه.

وأسقط فى يد كونت تولوز فسعى إلى التفاهم المباشر مع سيمون لإنهاء المشكلة، غير أن جهود التصالح باءت جميعها بالفشل. والجدير بالذكر أن مفوضى البابا أسهموا فى إفشال الجهود الرامية إلى التوفيق بين هذين الخصمين وحالوا دون تصالحهما؛ حيث إنهم أرادوا إذلال كونت تولوز ووضعه تحت رحمتهم تمامًا، كما أنهم أصروا على قيام كونت تولوز بطرد المهرطقين من أراضيه، ولكنه كرر رفضه ذلك مما جعلهم يوجهون إليه إنذارًا بنزع سلاحه والسماح لسيمون بدخول أراضيه كى يتمكن من طرد المهرطقين. وأيضًا اشترط الإنذار أن يحتفظ ريموند السادس بلقبه وجانب من دخله نظير أن يتولى سيمون إدارة دفة الحكم فى بلاده. ورأى ريموند أن هذه الشروط مهينة فغادر الاجتماع فى

غضب، فاستصدرت الكنيسة فى ٦ فبراير ١٢١١ أمرًا بفرض الحظر الكنسى عليه. وفى ١٧ أبريل من هذا العام اعتمد البابا إينوسنت الثالث هذا الحظر وأمر مندوبيه بالاستيلاء على أراضى ريموند السادس، وهكذا أصبح الطريق أمام سيمون معبدًا لبدء مرحلة ثانية من الحملة الصليبية، استهلها بشن هجوم على آخر معقلين فى أراضى ترانكاڤيل وهما قلعة كاباريه وقلعة لافور. وفى حين سقطت كاباريه فى يد سيمون بدون مقاومة ظلت لافور القريبة من تولوز تقاوم حتى شهر مايو ١٢١١. ولعب أسقف لافور الجديد دورًا فى هذه الحرب التى شنها سيمون؛ حيث إنه شجع مئات المقاتلين من تولوز على الانضمام إلى جيشه الذى كان يحاصر لافور، فتصدى لهم المهرطقون المحاصرون غير أن كونت تولوز اتخذ موقفًا مذبذبًا ومترددًا فى هذا الصراع الأمر الذى أوغر صدر الكنيسة ضده.

مجزرة قلعة لافور

شن سيمون دى مونتفورت هجومًا عاتيًا على قلعة لافور وعلى قائد حاميتها الغادر أيمرى مونترِيال. وبعد نجاح سيمون فى اقتحام القلعة، قام بشنق قائدها وتنفيذ حكم الإعدام فى ثمانين فارسًا مهرطقًا من المدافعين عنها. وبلغت قسوة سيمون دى مونتفورت ذروتها حين قام بإلقاء سيدة القلعة المهرطقة الكاثارية جيرالدا فى بئر ثم هال عليها كومة من الحجارة حتى أخمد أنفاسها، وفى الوقت نفسه تم إحراق ما يقرب من أربعمائة زعيم من زعماء الهرطقة. ورغم القضاء على كل هذا العدد الكبير من المهرطقين، فإن ذلك لم يضعف شوكتهم كثيرًا، حيث إنهم غيروا تكتيكاتهم ووجدوا البديل فى التحصن فى المدن.

ونتيجة مجزرة لافور استسلم لسيمون عدد كبير من المدن والقلاع فى إقليم تولوز. وخطط سيمون لمحاصرة مدينة تولوز، غير أنه تعجل فى الهجوم عليها تحت ضغط من المفوض البابوى أرنولد أمورى وأسقف فولك، فارتكب بذلك خطأً إستراتيجيًّا، فتولوز ليست بيزييه أو كاركاسون، بل هى واحدة من أكبر مدن أوكيتانيا، إذ يبلغ عدد سكانها ربع مليون نسمة. ورغم التعزيزات التى وصلت إلى سيمون فى فصل الصيف فقد فشل فى الاستيلاء على تولوز. حتى الكاثوليك بداخلها لم يضيقوا بالهراطقة بين ظهرانيهم ذرعًا، كما أن تولوز ظلت لمدة قرن كامل تسعى ما وسعها السعى إلى الاستقلال، ومن ثم رفضت تحكم سيمون دى مونتفورت فيها، بل إن أهل تولوز أصروا على تحدى الكنيسة الكاثوليكية، فعندما ساومتهم وعرضت عليهم الإبقاء على حياتهم وممتلكاتهم نظير انفضاضهم عن كونت تولوز، أبوا وأكدوا أنهم لن يخونوه بأى حال من الأحوال. ولا ريب أن كونت تولوز تمتع بدعم أهلها له، فقد اعتبروه

نصيرًا للحريات المدنية كما رأوا فى احتلال الغرباء لمدينتهم تهديدًا لهذه الحريات، وأمام مقاومة أهل تولوز العنيفة لها، فكت قوات سيمون حصارها لهذه المدينة. وشعر كونت تولوز بتحسن وضعه القتالى فلم ير داعيًا إلى استمرار التفاوض مع سيمون، فقطع المفاوضات وخاصة عندما تقدم حكام غرب أوكيتانيا لمؤازرته. وبعد انسحابه من محاصرة تولوز هاجم سيمون إقليم أوكيتانيا من الجنوب والشمال، وطارد كونت فوا حتى باب قلعته واستولى على جميع أراضيه، ثم تقدم بقواته إلى كاهور فى الشمال؛ حيث تخلى أسقفها الحاكم عن سيمون بمجرد مغادرته لأراضى كاهور ليعلن فروض الطاعة والولاء لغريمه ملك فرنسا، كما أن عددًا من قواد أوكيتانيا المهزومين فى الجنوب أمثال كونت فوا، وكونت كومنجر، وڤايكونت بيرن، وسفارى دى موليون، بدءوا فى استجماع قواهم والانضمام إلى صفوف كونت تولوز، ولو أن هذا الكونت لم يستسلم لتخاذله وانضم إلى المناوئين لسيمون دى مونتفورت لاستطاعوا جميعًا إلحاق الهزيمة به.

نشبت أول مواجهة بين قوات سيمون وبين المناوئين له ممن أشرنا إليهم فى بلدة يقال لها كاستلنودارى على الحدود الفاصلة بين أراضيه وأراضى كونت تولوز، وهناك تركزت قوات سيمون الأساسية. وفى البداية سارت المعركة لصالح كونت فوا غير أن سيمون نجح فى دحرها. وكما أسلفنا لو أن ريموند كونت تولوز حارب إلى جانب كونت فوا لتمكنا من إلحاق الهزيمة بسيمون الذى بدأ الضعف يعتريه. ولكن بوصول التعزيزات إليه من الشمال فى ربيع عام ١٢١٢، تمكن سيمون من الاستمرار فى محاصرة مدينة تولوز، كما سقطت فى يده أجن، وكاهور، ومواذاك، وألبى، وامتد حصار سيمون لمدينة تولوز من جنوبها إلى شمالها. وبعد سقوط أوستريف، وموريث، أحكم سيمون حصاره للمدينة، وفى نهاية عام ١٢١٢ دانت لسيمون كل أوكيتانيا، وألحق الهزيمة بجيش ريموند السادس كونت تولوز المتردد الذى لم يعد لديه ما يكفى لدفع رواتب جنوده فانفضوا عنه. وهكذا أصبح كونت تولوز تحت رحمة سيمون والكنيسة تمامًا، فحاول أن يتصالح معها كى تغفر له خطاياه، ولكنها أشاحت بوجهها عنه.

وهكذا أحرزت حملات سيمون دى مونتفورت الصليبية نصرًا مبينًا على أوكيتانيا التى تفشت فيها الهرطقة؛ مما أثلج صدر البابا إينوسنت الثالث الذى بدأت المشاكل تتجمع من حوله، فقد ناصبه إمبراطور ألمانيا العداء، وقام ملك إنجلترا بمصادرة معظم أملاك الكنيسة الكاثوليكية فى بلاده، وكذلك استولى المسلمون على القدس. وفى أوكيتانيا نفسها بدأ الأهالى يتذمرون من سيطرة الفرنسيين الأجانب على أراضيهم.

وفى نوفمبر ـ ديسمبر عام ١٢١٢، استصدر سيمون تشريعات تعطى مزايا كثيرة لطبقة الإكليروس وتقفو أثر قوانين الإقطاع الفرنسى؛ مما أثار حفيظة أوكيتانيا بسبب ما فعلته هذه التشريعات الفرنسية من تهديد مباشر لتقاليدها وهويتها المحلية. حتى البابا إينوسنت الثالث خشى من أن تتجمع خيوط السلطة فى يد سيمون دى مونتفورت الذى أصبح ڤايكونت بيزييه ودانت له السلطة فى معظم أرجاء أوكيتانيا. ودعاه خوفه من توسيع سلطة سيمون إلى الكتابة فى منتصف عام ١٢١٢ إلى مفوضيه طالبًا منهم أن يعطوا كونت تولوز فرصة لتبرئة نفسه وحظر عليهم مصادرة أملاكه. وزاد من قلق البابا إينوسنت الثالث تصاعد قوة المسلمين فى إسپانيا، وقد شاركه فى هذا القلق مفوضه أرنود أمورى الذى أصبح مؤخرًا رئيس أساقفة ناربون، والذى حشد قواته لمحاربة المسلمين فى إسپانيا. وأحرزت هذه القوات نصرًا ساحقًا على مسلمى إسبانيا فى معركة لاس نافاس دى تولوزا، التى وقعت يوم ١٦ يوليه ١٢١٢. ولعب پيتر أراجون الثانى الذى لم يكن على علاقة طيبة بسيمون دى مونتفورت دورًا مهمًّا فى دحر المسلمين؛ الأمر الذى جعل منه بطلًا مغوارًا يشار إليه بالبنان فى جميع أنحاء أوروپا المسيحية. وأخذت أنظار البابا تلتفت إلى استعادة إسپانيا من أيدى المسلمين بعد أن استتب أمر أوكيتانيا للكنيسة الكاثوليكية بفضل سيمون دى مونتفورت فاستبدلت بأساقفتها الساكتين على الهرطقة الكاثارية أساقفة عقدوا العزم على التصدى لها.

ويدل الخطاب الذى أرسله البابا إلى مندوبه أرنود أمورى بتاريخ ١٥ يناير ١٢١٣ على تحول أنظاره من مهرطقى أوكيتانيا إلى مسلمى إسپانيا الكفار. يقول إينوسنت الثالث فى هذا الخطاب:

> «إن الثعالب (أى المهرطقين) يدمرون كرمة الله فى إقليم بروڤنس وانتهى الأمر بوقوعهم فى الأسر. يجب علينا الاحتراس من خطر عظيم، لقد ترامى إلى أسماعنا أن الكفار المسلمين فى إسپانيا يعدون العدة لحشد جيش جديد للانتقام من الهزيمة التى لحقت بهم، فضلًا عن أن الأراضى المقدسة تحتاج إلى العون والمساعدة».

وهذه إشارة واضحة إلى ضرورة الانتقال من محاربة الهرطقة فى الداخل إلى محاربتها فى الخارج وفى الأراضى المقدسة.

ثم أرسل البابا فى اليوم المشار إليه نفسه خطابًا مستفزًا إلى سيمون جاء فيه ما يلى: «إن ملك أراجون العظيم يشكو من أنك وجهت حملتك الصليبية ضد الكاثوليك، وأنك أرقت

دماء رجال أبرياء وأنك ارتكبت خطأ فى حقه حين قمت بغزو الأراضى التابعة لمرءوسيه من النبلاء، بينما كان جلالته مشغولًا بشن الحرب على الكفار المسلمين رغم وجود هرطقة بين سكان الأراضى التى قمت بغزوها».

ولهذا تعين على سيمون أن يعيد إلى المهزومين أراضيهم التى استولى عليها طبقًا لما يقوله البابا بغير وجه حق، وأشار البابا أيضًا إلى أن صكوك الغفران الصادرة لصالح مقاتليه أصبحت لاغية إلا إذا يمم هؤلاء المقاتلون شطر إسپانيا أو الأراضى المقدسة.

وعندما استيقن پيتر أراجون من أن البابا قلب لسيمون ظهر المجن وأن سيمون لم يعد يتمتع بالحظوة لديه، قام بعقد مجموعة من التحالفات مع النبلاء الموتورين من سيمون، أمثال كونت تولوز، وفوا، وكومنجز، وڤايكونت بيرن. ورغم موقف البابا الجديد المتعاطف مع پيتر أراجون، فإن رجال الإكليروس فى أوكيتانيا كان لهم رأى آخر، فقد أحسوا أن طموح پيتر يمثل خطرًا عليهم أكبر بكثير من الخطر الذى يمثله سيمون؛ حيث إن پيتر كما رأينا لم يجد غضاضة فى إقامة تحالفات مع حكام وأمراء اشتهروا باحتضان الهرطقة وحماية المهرطقين، وعقد رجال الإكليروس اجتماعًا فى لافور فى يناير عام ١٢١٣ قرروا فيه أن كونت تولوز لا يمكن أن يكون موضع ثقة، وأنه المسئول عن انتشار الهرطقة فى بلاده، كما قرروا أن سيمون دى مونتفورت هو الوحيد القادر على إنقاذ الكنيسة الكاثوليكية من براثن المهرطقين فى أوكيتانيا، وأرسل المجتمعون فى لافور مبعوثين إلى البابا إينوسنت الثالث تمكنوا من إقناعه بوجهة نظرهم فاستجاب لهم البابا وقام بتغيير سياسته تغييرًا كاملًا، وأنحى البابا باللائمة على پيتر أراجون؛ لأنه ضلله وأعطاه معلومات مغلوطة. ورغم انتصار البابا أخيرًا لسيمون دى مونتفورت، فإن تردده أضعفه ونال من قوته، كما أن بعض جنده انفضوا من حوله. ثم إن تقريع البابا لپيتر أراجون جاء متأخرًا بعد أن استطاع أن يجمع حوله عددًا من الحلفاء أمثال كونت تولوز. ولكن هذه الانتكاسة لم تدم طويلًا فسرعان ما تمكن سيمون من قلب موازين القوى لصالحه، خاصة لأن جيشه رغم تضاؤل عدده كان أكثر تنظيمًا من جيش أعدائه، كما أنه عرف كيف يتحين الفرصة ويختار الوقت المناسب لمباغتتهم. وبسبب تردد كونت تولوز وتقاعسه استطاع سيمون أن يقطع الطريق على جنوده المشاة، وظل يلاحقهم حتى أغرقهم فى نهر الجارون، كما استطاع دحر جميع قوات أوكيتانيا المناوئة له والمناكفة ضده. ورغم انتصاراته الكاسحة فقد ظلت مدينة تولوز ومدينة ناربون صامدتين، كما أن مدينة مونپلييه شقت عصا الطاعة عليه.

وفشل سيمون فى إخضاع منطقة پروڤنس خضوعًا كاملًا لسلطانه. ومن پروڤنس اندلعت أول شرارة تمرد ضده.

كان هذا كله مجرد انتكاسات سرعان ما تغلب سيمون عليها. فقد دانت له أوكيتانيا فى نهاية الأمر، مما أقلق البابا وملك فرنسا فيليپ أغسطس على حد سواء. فمن ناحية ساورت البابا شكوك حول نوايا سيمون التوسعية، وأن حرصه على توسيع رقعة أراضيه يفوق حرصه على القضاء على الهرطقة، ومن ناحية أخرى شعر فيليپ ملك فرنسا أن هذا الرجل الطموح يهدد سلطته، وأيضًا حاول المفوض البابوى الجديد فى أوكيتانيا پيتر بنيفنتو الحد من طموحات سيمون التوسعية فأعطى فرصة لأعداء الكنيسة للتصالح معها، كما أنه رفض تنصيب سيمون حاكمًا على تولوز. وساعد على ذلك أن الكونت فوا والكونت كومنجز وريموند كونت تولوز وغيرهم قدموا فروض الطاعة والولاء لكنيسته، ورغبة منه فى إثبات ولائه للكنيسة وهبها جميع ممتلكاته. واضطر سيمون إلى إعلان خضوعه الكامل للكنيسة. ولكنه استطاع أن يتحين الفرصة المناسبة للاستيلاء على بقية أراضى كونت تولوز. وعندما احتدم الصراع بين المفوض البابوى الجديد پيتر بنيفنتو وسيمون دى مونتفورت، وقف عدد كبير من أساقفة الجنوب فى صف سيمون واعترضوا على محاولة زميلهم تقليم أظافره، ولا غرو فقد اعتبروه القائد الوحيد الذى تصدى باقتدار للمهرطقين الكاثاريين. وفى يناير عام ١٢١٥، عقد هؤلاء الأساقفة اجتماعًا فى مونپلييه ونصحوا زميلهم بنيفنتو أن يعطى تولوز وكل الأراضى التى سقطت فى الحملة الصليبية إلى سيمون، وتهرب بنيفنتو قائلًا إن هذا الأمر مرهون بإرادة البابا، فأرسلوا وفدًا إلى الكرسى البابوى يطلبون منه تنصيب سيمون حاكمًا على كل أراضى كونت تولوز فاستجاب إلى طلبهم. وهكذا أحرز سيمون نصرًا ساحقًا على مناوئيه، ودخل سيمون ظافرًا إلى تولوز فاضطر حاكمها السابق ريموند إلى اللجوء إلى إنجلترا، ووافق البابا على تنصيب سيمون كونت تولوز ودوق ناربون وڤايكونت بيزييه وكاركاسون. وحتى يسترضى ملك فرنسا فيليپ أغسطس أسرع سيمون بالسفر إلى باريس فى أبريل ١٢١٦ ليقدم له فروض الطاعة والولاء. وتعبيرًا عن رضاه عنه أكد هذا الملك أحقيته فى امتلاك جميع الأراضى التى استولى عليها فى وسط أوكيتانيا.

سيمون دى مونتفورت يواجه المعارضة

اعتمد سيمون دى مونتفورت فى حملته الصليبية ضد أوكيتانيا على جيش مكون من الفرنسيين أساسًا. ولكن بعد أن انتهى من إحراز انتصاراته الساحقة، آثر كثير من جنوده

مغادرة أوكيتانيا فى الجنوب والعودة إلى فرنسا فى الشمال، الأمر الذى ترك سيمون بدون غطاء عسكرى. وبالتالى تعين عليه الاعتماد على سكان أوكيتانيا. ولكنهم كانوا فى الواقع لا يحملون له الود، فهو غريب عنهم بقدر ما كان الغزاة الفرنسيون غرباء عنهم. غير أن عداوة أهل أوكيتانيا لسيمون لم تكن ظاهرة بل تكمن تحت السطح وتنتظر من يفجرها. وانتظر أهل أوكيتانيا الموالون لكونت تولوز المهزوم ريموند السادس اندلاع أية شرارة تمرد على سيمون كى يسارعوا بالانخراط فيه بهدف إعادته إلى سدة الحكم بقوة السلاح. وأيضًا بعد عام ١٢١٥ فتر حماس الفرنسيين لمواصلة الحرب الصليبية التى شنوها على أوكيتانيا. ثم إن شخصية سيمون لم تكن جذابة من الناحية الجماهيرية. كذلك فإن البابا إينوسنت الثالث المؤمن بشن حرب صليبية على المهرطقين مات وحل محله البابا أونوريوس الثالث (١٢١٦ ـ ١٢٢٧) الذى فضل المفاوضات على خوض الحروب، وأيضًا فقد سيمون تعضيد كثير من رجال الكنيسة المنتمين إلى الجيل الجديد بخلاف انتصار الجيل القديم له.. ذلك الجيل الذى تحمس له وهب للذود عنه لدى الكرسى البابوى. ثم إن ملك فرنسا فيليب أغسطس فقد اهتمامه بشئون الجنوب بسبب المشاكل السياسية التى اعترضته وانشغال فرنسا بشن الحرب على إنجلترا.

بدأ سيمون يواجه المشاكل الحقيقية عندما هبط كونت تولوز ريموند السادس برفقة ابنه ريموند السابع فى ميناء مارسيليا التى كانت مستقلة عن حكم كونت تولوز، ووعدت بقية منطقة پروڤنس ومناطق الشمال التابعة لعائلة هذا الكونت بتقديم العون له ولابنه. وفى أقل من شهر واحد تجمع جيش عرمرم فى مدينة أڤينيون فى انتظار اللحظة المناسبة للانقضاض على سيمون. وسعى ريموند السادس لدى أراجون كى يساعده فى إثارة التمرد فى تولوز تاركًا ابنه ريموند السابع ليقود قواته المتمركزة فى پروڤنس.

وفى شهر مايو عام ١٢١٦، سنحت لريموند السادس وابنه فرصة الهجوم على سيمون عندما وضعت مدينة بوكلير على الشاطئ الغربى لنهر الرون نفسها تحت تصرفهما. وتمكن سيمون من التصدى لهذا الهجوم ولكن حاميته اضطرت إلى الاحتماء فى قلعة المدينة، عندئذ لجأ كل فريق إلى تطويق الفريق الآخر. فمن ناحيته حاول ريموند السابع محاصرة الحامية فى القلعة حتى تتضور جوعًا، وفى الناحية الأخرى حاول سيمون أن يقطع خطوط إمدادات ريموند ويجره إلى التلاحم فى معركة حامية الوطيس. غير أن سيمون فشل فى حصار مدينة بوكير الواقعة على شاطئ النهر، الأمر الذى مكَّن ريموند وقواته من العيش فى بحبوحة ورغد

فى حين عاش جيش سيمون على الكفاف. وقام سيمون بهجوم باسل ثلاث مرات على هذه المدينة ولكن أعداءه ردوه على أعقابه، الأمر الذى اضطره إلى الاستسلام فى ٢٤ أغسطس ١٢١٦. واشترط ريموند نظير فك حصاره المضروب على القلعة أن يقوم سيمون فى المقابل بفك حصاره على مدينة بوكلير، ولكن هذا لم يلحق أى أذى مادى كبير بسيمون؛ لأن هذه المدينة كانت فى الأطراف وبعيدة عن تحصيناته الحقيقية المتمركزة فى كل من بيزييه وكاركاسون وتولوز. غير أن سقوط هذه المدينة فى يد أعدائه كان بمثابة انتكاسة معنوية له؛ حيث إن قوات أوكيتانيا أثبتت كفاءتها وأنها لا تقل تنظيمًا عن قوات سيمون الفرنسية. وبدأ شعراء التروبادور يسخرون من سيمون، كما أن أعداءه عبروا عن شماتتهم فيه وبدءوا يحيكون المؤمرات ضده.

أما مدينة تولوز معقل الهرطقة والمهرطقين فكانت لا تزال تحتفظ بودها وولائها القديم لكونت ريموند وتحمل المقت لسيمون، وسرعان ما نشب تمرد ضد سيمون فى هذه المدينة؛ الأمر الذى أجبر جنوده على الاحتماء فى الكاتدرائية. واستطاع المتمردون السيطرة على المدينة لفترة وجيزة غير أنهم سرعان ما انهاروا عندما أدركوا أن سيمون يحتفظ بعدد كبير منهم رهائن، وبأنه نجح فى تدمير تحصيناتهم، وتدخل أسقف تولوز وراهب دير القديس سونين لدى سيمون لوقف الحرب، فوافق سيمون على العفو عن المدينة مقابل دية مقدارها ٣٠ ألف مارك.

ولكن واجه سيمون فى عام ١٢١٦ وأوائل عام ١٢١٧ سلسلة من الثورات والتحديات المحدودة، غير أنه تصدى لها بكل ما أوتى من قوة، وشن حملات متصلة ومتلاحقة على المتمردين؛ الأمر الذى أنهكه وأنهك جيشه. وفى صيف عام ١٢١٧ استعاد سيمون قوته عندما وصلته إمدادات فى الشمال مكنته من عبور نهر الرون بغية معاقبة أمراء مقاطعة پروڤنس الذين سبق أن عضدوا غريمه السابق فى مدينة بوكلير، لكن مناوئى سيمون انتهزوا فرصة انشغاله بملاحقة أعدائه فى پروڤنس وغيابه عن البلاد للنيل منه.

كانت مراجل الغضب من سيمون تغلى فى مدينة تولوز التى وعدت حاكمها السابق ريموند السادس بتسليم نفسها له إذا جلب قوات كبيرة تمكنه من الاحتفاظ بها. وبالفعل جلب ما يحتاج إليه من قوات وانضم إليه فى الطريق كونت فوا، وكونت كومنجز، وعدد آخر من النبلاء، وتوجه هذا الجيش، إلى تولوز ليدخلها فى ١٣ سبتمبر ١٢١٧ دخول الظافرين، فرحب بمقدمه معظم أهالى المدينة واضطرت الحامية الفرنسية الصغيرة الموالية لسيمون إلى الاحتماء فى قلعة ناربونيه التى رأى ريموند السادس أنه من الحكمة عدم محاولة الاستيلاء عليها. وتهلل

أهل أوكيتانيا بعودة ريموند حاكمهم القديم وتغنوا بالأهازيج والأغانى الوطنية، وأيضًا انضم إلى جيش ريموند أعداء سيمون من الجنود الذين جردهم من ممتلكاتهم. وهكذا ولأول مرة توحدت أوكيتانيا التى اشتهرت بالتفكك السياسى والعسكرى وتطلعت إلى قتال سيمون وجيشه من أجل الحصول على استقلالها. ومعنى ذلك أن سيمون بحملته الصليبية استطاع توحيد أوكيتانيا وإلهاب مشاعرها القومية.

كان سيمون دى مونتفورت فى مقاطعة پروڤنس عندما علم عن طريق زوجته بأمر تمرد تولوز ضده، فسارع فى الحال بالرجوع إلى هذه المدينة حاشدًا فى طريقه ما استطاع من قوات، وأسرع بمهاجمة تولوز قبل أن يتمكن أعداؤه من تعزيز تحصيناتهم، غير أنهم استطاعوا أن يردوه على أعقابه. ولم يكن فى مقدور سيمون أن يضرب حصارًا حول تولوز بسبب اتساع رقعتها، وأدرك سيمون حرج وضعه العسكرى فاستعان بالبابا أونوريوس الثالث كى يصدر نداء بضرورة مواصلة الحرب الصليبية ونصرة سيمون، ولكن وصول المتطوعين والمشاركين فيها من الخارج احتاج إلى وقت طويل. وبينما أدى فشل سيمون فى اختراق تولوز إلى انخفاض روح جيشه المعنوية ارتفعت معنويات أعدائه من أهل تولوز.

وبحلول ربيع ١٢١٨ استطاع كل من الفريقين المتحاربين تعزيز قواته، وما إن عاد كونت تولوز ريموند السادس إلى أراضيه حتى هب أهلها لمناصرته رافعين الأعلام، واندفعوا نحوه كما لو كان قد قام من الأموات. وتهلل لمقدمه إلى تولوز الفقراء والأغنياء والشباب والشيوخ والأطفال والرجال والنساء وركعوا أمامه على الأرض، واغرورقت عيونهم بالدموع من فرط فرحتهم وتأثرهم بلقياه، وترجل الكونت ريموند السادس عن جواده عند دير القديس سيرنين تيمنًا به؛ لأن هذا القديس رفض الوجود الفرنسى فى أوكيتانيا. ودقت الطبول وأجراس الكنائس والفواخير، ولم ير سيمون بدًّا من مواجهة أعدائه الذين رموه بحجر شج رأسه فمات فى الحال. ورغم ما عرف عنه من شجاعة وكفاءة عسكرية نادرة ومن صمود وقدرة على اتخاذ القرارات السريعة الحاسمة، فقد فشل فى إنشاء مؤسسات فى أوكيتانيا يمكنه الاعتماد عليها فى كسب ود شعبها المهزوم.

وبموت سيمون دى مونتفورت انتهت أولى الحملات الصليبية الألبيجنسانية، وتقلد ابنه أمورى إدارة الجيش بعد وفاته، غير أنه كان يفتقر إلى الزعامة فانفض عنه كثير من أتباعه. وزاد من إضعافه أن الكونت كومنجز تمكَّن من طرد الحامية الفرنسية من بلاده، كما أن الكونت فوا

استولى على السهول الواقعة بين تولوز والجبال. وبعد موت سيمون وعجز ابنه أمورى عن قيادة جيشه، لم ترَ الكنيسة الكاثوليكية مناصًا من مناشدة فيليب ملك فرنسا التدخل لمساندة أمورى واعدة هذا الملك بدعم مالى كبير منها. وكان هذا بمثابة رشوة استمرأها الفرنسيون وألحوا فى طلب المزيد منها لإنفاقها فى أغراض علمانية لا شأن للكنيسة بها.

مجزرة مارماند

وطلب الكرسى البابوى من لويس ملك فرنسا تسيير حملة صليبية أخرى لمساندة أمورى ابن سيمون، فاستجاب الملك للطلب البابوى على مضض بسبب الود المفقود بينهما. فقد أثارت كنيسة روما حفيظة هذا الملك عندما منعته من غزو إنجلترا، وفرضت عقوبات مالية باهظة كى ترفع الحظر الكنسى الذى فرضته عليه، ورغم أن الملك لويس وافق فى يناير ١٢١٩ على قيادة حرب صليبية تحت ضغط من البابا، فإنه كان فى قرارة نفسه عازفًا عنها وغير مقتنع بها. وانضم الجيش الفرنسى بقيادة الملك لويس إلى قوات أمورى لمحاصرة مدينة صغيرة تسمى «مارماند» حتى انتهى الأمر بها إلى الاستسلام وارتكبت فيها مجزرة تقشعر لها الأبدان؛ حيث إن القوات الفرنسية الغازية قطعت أوصال الكثيرين من أهل هذه المدينة لدرجة أنها تناثرت فى عرض الطرق كما أن الشوارع غرقت فى بحر من الدماء.

وبعد سقوط مارماند وتقطيع أوصال أهلها، قام الملك لويس بضرب الحصار على مدينة تولوز التى تصدت له وقاومته بشراسة؛ الأمر الذى أجبر لويس على فك الحصار والانسحاب والعودة إلى بلاده تاركًا أمورى بن سيمون فى حالة ضعف مزرية، وزاده ضعفًا على ضعف تخلى كثير من جنوده عنه، فضلًا عن أنه لم يكن يملك الأموال اللازمة لدفع رواتب المرتزقة الذين يستعين بهم فى حروبه. وتهاوت المدن التابعة لـ «أمورى» مدينة تلو الأخرى، وبهذه الهزيمة تقدمت قوات ريموند السابع بتأييد من كونت فوا للاستيلاء على المواقع التى سبق لسيمون أن استولى عليها، ولكن قوات ريموند السابع وكونت فوا تجنبت الحرب فى المدن الحصينة مثل كاركاسون وناربون. وبهذا استطاع ريموند السابع الاستيلاء على كل البلاد التى كان والده قد خسرها فى حربه ضد سيمون، وفى عام ١٢٢٢ توفى ريموند السادس ولكن الكنيسة رفضت الصلاة على جثمانه لشكها فى هرطقته.

وحتى بعد أن مات ريموند روجر كونت فوا عام ١٢٢٣، خلفه وريث أشد ما يكون

تحمسًا ونصرة لعائلة كونت تولوز وعداء لعائلة سيمون. وعبثًا حاول البابا أونوريوس الثالث الدفاع عن أمورى بن سيمون وتحسين صورته، فقد ازور عن هذا الدفاع أهل أوكيتانيا كما أن فرنسا تخلت عنه وانتهت الحرب بين أمورى والموالين لكونت تولوز بعقد هدنة فى ١٦ يناير ١٢٢٤ بعد أن اضطر أمورى إلى تسليم منطقة الجنوب بعد انهزامه الساحق إلى حكم ريموند السابع الذى تمكن من احتلال كل من كاركاسون وبيزييه دون مقاومة. وبطرد النفوذ الفرنسى فى أوكيتانيا واندحار سيمون وابنه، عاد الهراطقة هناك إلى سابق قوتهم. وبذلك تكون ريمة قد عادت إلى عادتها القديمة، وتكون الحملة الصليبية الألبيجنسانية ضد الهرطقة قد منيت بهزيمة نكراء.

الكنيسة الكاثوليكية ترفض الهزيمة
وتسعى إلى اجتثاث الهرطقة

قلنا إن الهرطقة ازدهرت بشكل ينذر بالشر عندما لحقت الهزيمة بـ «أمورى بن سيمون» على يد ريموند السابع كونت تولوز الجديد. واستاء البابا استياء شديدًا من شدة انتشار الهرطقة، فقد كان يأمل فى اقتلاعها من جذورها الضاربة فى أوكيتانيا عامة وتولوز خاصة. ورأى البابا أونوريوس الثالث أنه من الضرورى شن حملة صليبية أخرى تهدف إلى إرغام ريموند السابع على استئصال الهرطقة فى بلاده، ولم يكن هناك من يستطيع شن حملة صليبية غير ملك فرنسا لويس الثامن. غير أن عامى ١٢٢٣ و١٢٢٤ لم يكونا الوقت المناسب بالنسبة للويس لشن هذه الحرب، ففى منتصف عام ١٢٢٣ كان ملك فرنسا فيليپ أغسطس يحتضر، وفى النصف الثانى من ذلك العام انصرف خلفه لويس الثامن إلى ترتيب أحواله وحاول إعادة الأمن والاستقرار إلى مدينة بواتو المضطربة والتى كان نبلاؤها فى أحيان كثيرة يناصرون إنجلترا ضد فرنسا. واستطاع لويس الثامن أن يكسر شوكة مدينة بواتو، كما استطاع بعد عام ١٢٢٤ الاستيلاء وإحكام قبضته عليها، وبسقوط بواتو فى يده كان فى مقدوره تسيير حملة عسكرية ضد الجنوب.

وجرت مفاوضات بين البابا أونوريوس الثالث ولويس الثامن اشترط فيها لويس شروطًا قاسية مقابل اشتراكه فى شن حملة صليبية على الجنوب، وتلخصت شروطه فى أن تتحمل الكنيسة معظم تكاليف الحملة وأن يسيرها فى الاتجاه الذى يريد، وأن يضم إلى ممتلكاته الأراضى التى يستولى عليها. وباختصار أراد لويس الثامن اختزال الحرب بالهجوم السريع على مدن تولوز وكاركاسون وبيزييه وعدم إضاعة حياته مثلما فعل سيمون دى مونتفورت فى

محاربة سائر أمصار الجنوب. وكذلك صرح هذا الملك بأنه فى حالة ذهابه إلى الجنوب فسوف يستولى على كل ممتلكات سيمون مونتفورت. وانزعج البابا من هذه المطالب وشعر بعدم الارتياح تجاه صاحبها، وخاصة لأنه كان يسعى إلى تعيين حاكم شديد الولاء له فى كل من تولوز وكاركاسون، فضلًا عن أنه أراد من هذا الملك أن يفعل شيئًا أعظم يتلخص فى قيادة حملة صليبية كبيرة لاسترجاع بيت المقدس.

وعلى أية حال رفض البابا مقترحات لويس الثامن واقترح عليه أن يقوم بترويع ريموند السابع حتى يقبل التصالح مع الكنيسة، وغضب الملك من اقتراح البابا بأن يلعب دور البعبع، ولكن مجرد وجوده ووجود جيوشه الحاشدة على حدود أوكيتانيا كان كافيًا لإثارة الذعر فى قلب ريموند كما كان البابا يتمنى؛ الأمر الذى اضطره إلى السعى لاسترضاء الكنيسة.

وجرت مفاوضات بين الكنيسة وريموند السابع على غرار المفاوضات التى سبق أن جرت بين الكنيسة ووالده ريموند السادس، وهى مفاوضات انتهت إلى التعثر والفشل. وعجز ريموند السابع أن يقنع الكنيسة بإخلاصه وولائه لها رغم أنه بذل كل جهده لإثبات حسن نواياه، فقد وعد بمعاقبة المهرطقين وطردهم وإصلاح أية أخطاء يكون قد ارتكبها فى حق الكنيسة، ودفع تعويض كبير لـ «أمورى» على سبيل الترضية. وقام ريموند السابع بإعادة مدينة آجد إلى الأسقف الذى كان يملكها أصلًا، فضلًا عن أنه دفع تعويضات مناسبة إلى الكرادلة الذين سبق له الإضرار بمصالحهم. وبالفعل سعى ريموند السابع إلى ممارسة شىء من الضغط على المهرطقين، ولا غرو فقد كان لا يعطف عليهم بنفس قدر عطف والده عليهم، وأراد بذلك تحسين صورته أمام الكنيسة. وقد أمضى ريموند السابع معظم النصف الثانى من عام ١٢٢٤ فى التفاوض مع رئيس أساقفة ناربون أرنود أمورى واعدًا باتباع أية أوامر يصدرها البابا إليه وطالبًا الصفح من الكنيسة، ولكن كل جهوده ذهبت أدراج الرياح. فبحلول نهاية عام ١٢٢٤ بات من الواضح أن البابا أونوريوس يناصبه العداء، ولا غرو فقد كانت الكنيسة لا تزال تدين بفضل عائلة سيمون عليها واستبسالها فى الدفاع عن مصالحها. ولا شك أن البابا تأثر برأى كرادلة وأساقفة أوكيتانيا الذين أجمعوا على معارضة ريموند السابع، والذين شكوا فى تساهله مع المهرطقين على نحو ما فعل والده من قبل.

كانت كنيسة روما آنذاك تتوق إلى مساندة لويس الثامن ملك فرنسا لها، ولهذا كرر البابا طلبه منه قيادة حرب صليبية جديدة، وقرر لويس الاستجابة إلى طلب البابا بعد كثير من التردد

والتذبذب. ومن جانبهم مهد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الطريق إلى ذلك بإزالة أسباب سوء التفاهم الذى شاب فيما مضى علاقة البابا بالملك لويس، وعقد كرادلة فرنسا مجلسًا لإدانة ريموند السابع لتبرير هجوم لويس ملك فرنسا عليه. وفى ٣٠ نوفمبر عام ١٢٢٥ عقد رجال الإكليروس الفرنسيون اجتماعًا فى مدينة بورج رفضوا فيه طلب ريموند السابع صفح الكنيسة عنه بدعوى أنه لم يقدم الوعود الكافية لطاعة أوامرها. وفى اجتماع آخر فى يناير ١٢٢٦ تجدد فرض الحظر الكنسى عليه وعلى حاشيته وكذلك على كونت فوا وڤايكونت بيزييه. وأكدت الكنيسة أحقية ملك فرنسا فى الحصول على كل أراضى ريموند السابع حتى تغرى هذا الملك بشن الحرب الصليبية التى تريدها، وفى ٣٠ يناير ١٢٢٦ تعهد ملك فرنسا بإعداد هذه الحملة. وحتى يخطب الكرادلة وده استجابوا لكل الشروط التى سبق أن أملاها على البابا عام ١٢٢٤، ولكنهم وفروا على البابا الحرج بأن قاموا بأنفسهم بتقديم ما طلبه الملك لويس من مطالب مثل إعطائه حرية ترك الحملة وقت ما يشاء، وتعهدت كنيسة فرنسا بدفع عُشر دخلها له لمدة خمسة أعوام وهو مبلغ أكبر بكثير من المبلغ الذى سبق أن طلبه عام ١٢٢٤.

وفى مايو عام ١٢٢٦، حشد الملك لويس جيشًا كثير العدد والعدة فى مدينة بورج، الأمر الذى أدخل الخوف فى قلوب أهل أوكيتانيا لدرجة أن الكثيرين من أمرائهم سارعوا بتقديم فروض الطاعة والولاء له، وتخلى كثير من المدن عن مساندة ريموند السابع وانضمت إلى جانب لويس الثامن ابتداء من مدينتى بيزييه وكاركاسون حتى ميناء مارسيليا. غير أن تولوز أظهرت تحديًا له، وسايرها فى هذا التحدى عدد قليل من البلدان الواقعة فى غرب أوكيتانيا، ولكن كان من الواضح أن كفة ملك فرنسا هى الراجحة، ومع ذلك فقد واجه مقاومة شديدة فى مدينة أڤينيون التى ظلت تحتفظ بشىء من الود نحو ريموند السابع. ظلت أڤينيون تقاوم الحصار الذى فرضه ملك فرنسا عليها فى ١٠ يونيه ١٢٢٦، وطال أمد الحصار فحاول لويس اقتحام المدينة ولكنه فشل، فعاد إلى مواصلة الحصار حتى أنهك قوى أڤينيون وأرغمها على الاستسلام فى ٩ سبتمبر ١٢٢٦، فدفعت له تعويضًا متواضعًا قدره ستة آلاف مارك.

وأدى سقوط أڤينيون فى يد الفرنسيين إلى وجودهم الدائم فى الجنوب واستيلائهم على مقاليد الحكم هناك. وعقب سقوط أڤينيون انهارت مقاومة أوكيتانيا، واستسلمت مقاطعة پروڤنس للبابا وقبلت وجود حاميات فرنسية فيها، وبعد ذلك اتجه الملك لويس إلى كاركاسون دون مقاومة. غير أن استسلام أڤينيون الذى بث الخوف والفرق فى قلوب أهل أوكيتانيا عجز

أن يحطم تصميم ريموند السابع وأهل تولوز على المقاومة، ولكن حصار الجيش الفرنسى لأڤينيون لفترة طويلة فتَّ فى عضده وكبده خسائر فادحة. وعندما أدرك ملك فرنسا أن ريموند السابع يتميز بتحصينات قوية فى تولوز، قرر عدم مهاجمتها والرجوع إلى بلاده ثم العودة منها فى العام القادم لشن هجوم عليها، ولكن المرض العضال داهمه عند عودته إلى بلاده فمات فى ٨ نوفمبر ١٢٢٦ ليخلفه لويس التاسع (الملقب بالقديس لويس)، الذى كان طفلًا عند وفاة والده، وتولت أمه بلانش كاستيل مقاليد الأمور بعد وفاة زوجها لويس الثامن، ولكن أشراف البلاد تمردوا عليها؛ لأنهم كانوا يطمعون فى استرداد ما فقدوه من استقلال. وبسبب هذه القلاقل اضطرت فرنسا إلى تعليق حملتها الصليبية واكتفت بلانش كاستيل بترك قوة ضاربة فى الجنوب كافية لردع ريموند السابع ومنعه من إثارة المتاعب لها.

غير أن ريموند السابع ظل يحتفظ بسيطرته على تولوز والأراضى الواقعة فى شمالها، فى حين أن ملك فرنسا احتفظ بسيطرته على مدن ألبى وكاركاسون وبيزييه وجميع البلاد الممتدة شرق منطقة ترانكاڤيل حتى مدينة بوكير على نهر الرون. ولم يكن أهل أوكيتانيا فى هذه المرة على استعداد لخوض المعارك إلى جانب ريموند السابع مثلما كانوا عقب وفاة سيمون دى مونتفورت، فقد سئموا القتال وشعروا بالإنهاك من كثرة الحروب. وفى عامى ١٢٢٧ و١٢٢٨ تطلع أهل أوكيتانيا إلى عقد معاهدة سلام دائم مع الفرنسيين على أساس الاعتراف بالحدود القائمة آنذاك، والتقى ريموند السابع الفرنسيين فى مؤتمر عقد فى مدينة مو فى ديسمبر عام ١٢٢٨ استمر إلى يناير ١٢٢٩، وأبرموا معاهدة سلام تم التصديق عليها فى باريس يوم ١٢ أبريل عام ١٢٢٩.

كانت شروط هذه المعاهدة قاسية بالنسبة لريموند السابع. ولكنها رغم قسوتها أفادته فى أمرين: أولهما: تصالحه مع الكنيسة. وثانيهما: الاعتراف به رسميًّا كونت تولوز. وبطبيعة الحال لم يكن رضاء الكنيسة عنه ممكنًا لو لا أنه تاب وارعوى ووعد بملاحقة الهراطقة وإنزال العقاب بهم. ودليلًا على عزمه على مطاردة الهراطقة أعطى كل من يقبض على مهرطق ماركين (تم تخفيضهما فيما بعد إلى مارك واحد)، وأيضًا أعطى ريموند السابع للكنيسة مبلغ أربعة عشر ألف مارك على سبيل التعويض. وكذلك تعهد ريموند بدفع أربعة آلاف مارك مرتبات لأساتذة اللاهوت وفقهاء القوانين الكنسية الوافدين إلى تولوز بهدف ترسيخ المؤسسة الكاثوليكية فى بلد اشتهر بانتشار المهرطقين، الأمر الذى أثمر فى النهاية إقامة جامعة تولوز. وأراد ريموند

السابع توثيق عرى المودة بملك فرنسا فزوج ابنته من ألفونس شقيق هذا الملك. واستتب الحكم لملك فرنسا بعد أن تمكّن من القضاء على جيوب المقاومة التى اعترضت طريقه من وقت إلى آخر، مثل المقاومة التى بذلها ڤايكونت ترانكاڤيل عام ١٢٤٠ لاسترداد الأراضى التى فقدتها عائلته.

وفى عام ١٢٤٢، قام ريموند السابع بتمرد جديد أصاب قدرًا محدودًا من النجاح وزاد من مشاكله ارتكاب مجزرة لمجموعة من محققى محاكم التفتيش فى مدينة صغيرة فى جنوب شرق تولوز تدعى أفيجنونيت. وزاد من مشاكله أن المجزرة وقعت فى أراضيه وأن أحد موظفيه أعطى الأمر للمهرطقين بالهجوم على المحققين، وفى الحال فرضت روما الحظر الكنسى على ريموند السابع وبدأت الكنيسة تفكر فى شن حرب صليبية أخرى، وانفض أتباع كونت ريموند عنه معلنين ولاءهم لملك فرنسا لويس التاسع. وأدرك ريموند عدم جدوى الاستمرار فى المقاومة فاستسلم للويس التاسع الذى أنزل به عقابًا مخففًا لإدراكه أنه لم يعد مصدر خطر. وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى انخرط فيها ريموند السابع فى تمرد ضد ملك فرنسا، وقد أمضى ريموند السابع البقية الباقية من حياته فى البحث دون جدوى عن زوجة تلد له ذكرًا يرث ملك تولوز من بعده، كما أنه سعى إلى استرضاء الكنيسة باضطهاد الهراطقة والتنكيل بهم.

وثأر ملك فرنسا للمجزرة التى أطاحت بمحققى محاكم التفتيش فى أفيجنونيت، فاستولى على قلعة أشد ما تكون تحصينًا هى قلعة مونتسيجور التى كان الأرستقراط المهرطقون يحتمون فيها. ولم يكن الاستيلاء على هذه القلعة بالأمر الهين؛ فهى تقع فوق أحد جبال البيرنيز (البرانس) ولا سبيل إلى الوصول إليها سوى عن طريق ممر وعر شديد الانحدار وكثير المنحنيات، واستغرق حصار الجيش الفرنسى بقيادة هيو لهذه القلعة عامًا كاملًا من مارس ١٢٤٣ حتى مارس ١٢٤٤ وفى زمهرير شتاء بالغ القسوة. وحين تم القبض على المهرطقين الذين يحتمون بهذه القلعة خيروا بين نبذ هرطقتهم أو الموت حرقًا. ففضل مائتان منهم من الرجال والنساء الموت حرقًا فرحين جذلين، على خيانة عقيدتهم الدينية المهرطقة.

وكان سقوط معقل مونتسيجور الضربة القاضية التى شتتت المهرطقين الكاثاريين، بحيث لم تقم لهم أية قائمة بعد عام ١٢٤٤. وبسحق المهرطقين تعزز حكم العائلة المالكة الفرنسية، وبموت الكونت ريموند السابع فى سبتمبر ١٢٤٩ آلت أملاكه إلى لاونس كونت بواتييه وشقيق ملك فرنسا وزوج ابنة ريموند السابع الذى أنجب منها طفلة. وحكم ألفونس تولوز

من باريس ولم يظهر فى الجنوب إلا فى عام ١٢٧٠ وهو يقود حملة صليبية متجهة إلى تونس. وعندما توفى ألفونس وابنته (بدون نسل) فى عام ١٢٧١ بعد عودتهما من الحملة الصليبية، آلت جميع أراضيهما إلى ملك فرنسا الجديد الذى خلف لويس التاسع. وإنها لمفارقة ما بعدها مفارقة أن تؤول الأراضى التى قاتل سيمون دى مونتفورت لعدة سنوات من أجل الحصول عليها والتى حارب ريموند السابع حربًا مريرة من أجل الحفاظ على بعض منها إلى العائلة المالكة الفرنسية بكل هذا اليسر وهذه السهولة. هذه المفارقة جعلت المؤرخ لوتشير يكتب فى عام ١٩٠٥ قائلًا: «كل واحد ابتداء من البابا إينوسنت الثالث فصاعدًا جاهد وكافح وتعذب دون أن يدرك أنه يعمل لصالح ملك فرنسا».

هذه هى الظروف التى نشأت فيها محاكم التفتيش فى فرنسا والتى فصلناها فى كتابنا «محاكم التفتيش» ـ دار الهلال ٢٠٠٢.

* * *